التراث الأرثوذكسي

ISSN 1814-7038

السنة العشرون، العدد الثالث، كانون الأول ٢٠٢٣

مختارات آبائية/ حياة روحية / كتاب مقدس / لاهوت

القديس يوحنا ماكسيموفيتش، رسالة الميلاد لسنة ١٩٥٢

الأرشمندريت جورج كابسانيس، رسالة عيد الميلاد المتواضعة

أسرة التراث الأرثوذكسي، الكهنوت بحسب القديس سمعان المترجم – ٣

الميتروبوليت جوزيف، طريق المحبة الصعبة - ٢

القديسة أرسانيا. ما معنى أن نؤمن بالله؟ إرشادات روحية - ١

جان كلود لارشيه. أهمية الدراسات الآبائية للدراسات اللاهوتية

الأب انطوان ملكي. البابا الرمادي والمثلية

الخورية سميرة عوض ملكي، حول إنجيل الوليمة الكبرى (أحد الأجداد)

رسالة الميلاد لسنة ١٩٥٢

القديس يوحنا ماكسيموفيتش

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

ميلادك أيها المسيح إلهنا، قد أطلع نور المعرفة في العالم
" أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّنَا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ" (متى ٢:٢)- هكذا سأل المجوس الذين أتوا إلى أورشليم. والرعاة الذين كانوا يرعون قطعانهم بالقرب من بيت لحم عرفوا بميلاد المسيح، لأن مجد الرب أشرق حولهم وأخبرتهم الملائكة بذلك. الآن يُعلَن للناس سر عظيم: مَن معهم – إنه ابن الله.
إن الذي خلق الإنسان على صورته ومثاله، قد أصبح الآن إنساناً وسكن بين البشر. لقد جاء إلى الأرض ليأخذ الإنسان إلى السماء.
لقد جاء الرب ليخلص الجميع ويدعو الجميع إلى ذاته.
لكنه يظهر للناس بطريقة يستطيعون إدراكها.
هو لم يظهر على الأرض في البهاء الإلهي، لأن عيون الإنسان الخاطئة لا تستطيع أن تحتمل أشعة شمس الحق. لم يأتِ بمجد قوته لئلا يخيف الإنسان الذي أخطأ إليه. أخفى نوره الإلهي بالجسد البشري، وأخفى جلاله في وجه رضيع ضعيف ومسكين. يريدهم أن يأتوا إليه، لا عنوة، ولا بخوف ورهبة، ولا طلباً لكنوز أرضية منه. إنه يدعو الذين يطلبون الحق، والمتواضعين الذين يريدون تطهير قلوبهم.
إنه يعلن نفسه لأولئك الذين يقبلونه بالإيمان والمحبة، والذين هم على استعداد لإخضاع أذهانهم للإعلان الذي من العُلى، وإخضاع إرادتهم لمشيئة الله. فللحكماء الذين درسوا النجوم وأرادوا من خلالها معرفة خالق العالم، أعلن بواسطة نجمٍ عن مجيء شمس الحق إلى الأرض. للرعاة البسطاء وغير الحكماء، أنقياء القلوب، ظهر جند السماء وأنشدوا مجد مخلص العالم المولود.
أسرع الرعاة إلى بيت لحم، وعندما وصلوا إلى الرضيع المضجع في المذود، ميّزوا في هذا البؤس الخارجي ملك الملوك. لقد سبحوا خالقهم، ومجدوا الله الذي تسبحه الملائكة في السماء، وعلى الأرض هو في متناول كل إنسان.
اندفع المجوس من المشرق إلى الملك المولود في اليهودية، تاركين أوطانهم وكل اهتماماتهم الدنيوية. لقد جلبهم النجم إلى الطفل، وشعروا أنه الإله الأزلي. خروا وسجدوا له، وقدموا له الهدايا من كنوزهم الأرضية، وأحرقوا ضلالات عقولهم بنار الإيمان الذي أنار قلوبهم.
لقد كُشف أمامهم عمق غنى الله وحكمته وفكره. "الذي يملك في السماء في الأعالي" جاء بداعي الرحمة إلى الإنسان الذي خلقه.
الجالس بمجد على عرش اللاهوت إلى أبد الآبدين، حاملاً صَولَجان البِر، صَولَجان مملكته، من أجلنا وضع نفسه لدرجة أنَّه صار عبداً.
منذ القِدَم، صار الكلمةُ وابن الله الأزلي جسداً، هو الذي منه قد أخذ كلُّ ما هو موجود كيانه. الإله، الذي لا تستطيع الملائكة أن تنظر إليه، ظهر في الجسد، وتراءى للملائكة وحلَّ بين الناس. افرحي كثيراً أيتها السماوات! تهللي يا جبال!
ولد المسيح، قوات السماء تبتهج، والأرض تطرب مع الإنسان. إن قوات الربـ والسيدِ السماوية تعلن للعالم ميلاد المخلص.
اليوم، كل الخليقة تبتهج وتفرح، لأن المسيح قد وُلد من العذراء البتول! تعال أيها الشعب الحامل المسيح، لنعاين معجزة ترهب كلَّ عقل، إذْ نرى نزول الألوهية، وإذ نقينا أذهاننا، فنقدّم الفضائل، بدلاً من الذهب واللبان والمرّ!

لقد ظهر في العالم والعالم لم يعرفه، لكي ينير الذين في الظلمة. لقد ظهرتَ كخاطئ وعشار من كثرة رحمتك، يا مخلصنا محب البشر، المجد لك. هلّموا جميعاً، لنفرح في الرب!
السماء المرصعة بالنجوم لا تزال تتلألأ فوقنا.
فلنفتحْ أعيننا الروحية ونرَ أن السماوات تذيع مجد الله.
فلنفتح آذان قلوبنا ونسمع صوت ملاك يدعونا إلى السجود للمولود الجديد.
كل أنواع الأفراح تتحقق اليوم: فاليوم من أجلنا قد وُلِد طفل صغير وهو إلهنا قبل الدهور! المسيح وُلِد!

St. John Maximovitch. 1952 Nativity Message. Translated by John Sanidopoulos. Wednesday, December 28, 2022. https://www.johnsanidopoulos.com/2022/12/1952-nativity-message-of-st-john.html

رسالة عيد الميلاد المتواضعة

الأرشمندريت جورج كابسانيس
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

في كل سر تدبير الرب المتجسد، الذي اختبرناه اليوم وتمتعنا به حقاً، كما في اجتياز الصوم المقدس بنجاح والوصول البهيج إلى هذا العيد الذي يسميه الذهبي الفم حاضرة الأعياد [أي: أم كل أعياد الكنيسة]، فإننا نتعجب من محبة الله الآب تجاه خليقته الإنسان. ونحن لا نتعجب فقط، بل ننذهل عندما نرى أن الله الكلي الصلاح، الغني في لاهوته، دخل في فقر الجسد البشري ومرضه، ليمنحنا نعمته والاتحاد به.
لكن ما يترك انطباعاً خاصاً فينا هو أن الرب يكشف عن نفسه للنفوس المتواضعة. الرعاة الذين رأوه كانوا متواضعين وبسيطي القلب. وكان يوسف، خطيب والدة الإله الكلية القداسة، متواضعاً أيضاً. وكانت والدة الإله نفسها ممتلئة تواضعاً. لكن حتى المجوس القادمون من المشرق، مع أنهم كانوا حكماء، إلا أنهم كانوا أيضاً يتمتعون بنفوس بسيطة ومتواضعة. على العكس من ذلك، فإن الأشخاص الذين كانوا يثقون في أنفسهم، في منطقهم، في قدراتهم، في حكمتهم، في سلطتهم الدنيوية، مثل هيرودس وحكام إسرائيل والطبقة الحاكمة في أورشليم، لم يتمكنوا من رؤية يسوع ومقابلته، مع أنهم بذلوا جهوداً يائسة، لأنهم أرادوا إهلاكه.
وهذا يا إخوتي وآبائي يحدث في كل جيل. كل نفس متواضعة، كل نفس بسيطة يمكنها أن تلتقي بيسوع المتواضع وتعرفه وتتحد به. ولكن أيضاً كل نفس متكبرة مكتفية بذاتها وتذكي نفسها لا يمكنها أن تلتقي يسوع المتواضع وتعرفه وترتاح فيه. ولأن يسوع متواضع، فإن المتواضعين وحدهم هم من يمكنهم أن يختبروه.
وأعتقد أن هذا شأن يهمّ حياتنا المسيحية كما يهمّ حياتنا الرهبانية. لقد جئنا إلى هنا، إلى الجبل المقدس، مثل المجوس القادمين من المشرق أو مثل الرعاة الذين سمعوا من الملاك أنه قد ولد الرب يسوع المسيح. وقد جئنا إلى هنا لنعبد يسوع المتواضع ونعيش بالقرب منه طوال حياتنا. يا لها من نعمة عظيمة حقاً! أن نجعل عمل حياتنا العيشَ باستمرار مع يسوع. لكن ما سيسهِّل لقاءنا وحديثنا اليومي مع يسوع المتواضع هو تواضعنا. حتى لو خرجنا من العالم وتخلينا عما تركناه، فإنَّه دون أن ننمي في قلوبنا التواضع المبارك لن يكون لنا مكان مع يسوع المتواضع.
لذلك، فلنطلبْ هذه النعمة اليوم من يسوع المتواضع؛ ليمنحنا أيضاً هذا التواضع المبارك، لا مظهر التواضع، ولا أشكال التواضع الخارجية، بل القلب المتواضع العميق، الذي يشرح لنا آباؤنا القديسون معناه. ولنطلب منه أيضاً أن ينير بنور محبته ورحمته ونعمته ديرنا والجبل المقدس، بل أيضاً وطننا والعالم أجمع، لأنه حيثما يأتي يسوع المسيح يكون النور والسلام والفرح. و يسكن في قلوب البشر.
كما في كل عيد عظيم، من الطبيعي في هذه السنة أيضاً أن نوجه أنظارنا نحو جميع إخوتنا الذين يعانون ويتألمون ويعيشون لحظات صعبة من حياتهم. هناك العديد من إخوتنا الذين يعانون اليوم في العالم، في جميع أنحاء الأرض. لنطلب من الرب اليوم بشكل خاص أن يعطي شعاع رجاء لجميع المتألمين، عزاءً ونوراً. لكن قبل كل شيء، لنطلب منه أن ينير أصحاب النوايا الحسنة الذين لا يعرفونه، ليتعرفوا عليه، ويعيشوا في نور محبته وفرحه وسلامه. نتمنى للجميع البركة الغنية من ربنا وإلهنا المولود الجديد.

Source: Αρχ. Γεώργιος Καψάνης. Στη γέννηση του Χριστού. "Ομιλίες σε ακίνητες Δεσποτικές και Θεομητορικές Εορτές", Έκδ. Ι. Μ. Οσίου Γρηγορίου, Άγιον Όρος 2015, σελ. 59.

الكهنوت بحسب القديس سمعان المترجم – ٣

إعداد أسرة التراث الأرثوذكسي

الكهنوت والنسك المسيحي

بعد أن تحدث عن بذل الذات وإنكارها من أجل الآخرين والخدمة المضحية باعتبارها المواصفات النموذجية للكهنوت المسيحي، انتقل القديس سمعان إلى شهادة النسك المسيحي ليوضح فهمه للكهنوت بشكل أكبر. ما يشير إليه هنا هو أن النموذج النسكي أساسي لنموذج الكاهن. الناسك هو الذي يحب الرب فوق كل شيء. الكاهن هو الذي يحب الرب ويقبل دعوته ليرعى خرافه.

يتساءل القديس عن صحة أن ثوب النسك الإلهي الحامل الصليب (τό σχήμα) هو علامة فقر المسيح. أليست علامة الصليب هي أيقونة الموت ودراسة كل ما هو فوق العالم وما وراءه والتخلي عن كل ما هو سفليّ وما هو أرضي ورفضه؟ فيقول إن الأمر كذلك بالفعل. ومع ذلك، كان هناك الكثير من المعلمين الروحيين العظماء، الذين فهموا تماماً واحترموا هذا الرداء النسكي في حياتهم، لكنهم تجنبوا تولي سمو مجد الكهنوت المقدس. يوضح أن ذلك لم يكن لأنهم ظنوا أن الكهنوت أمر يجب تجنبه، بل لأن سموه يتطلب نفساً عظيمة جداً وقادرة على تقديم الأعمال المقدسة. إنه يتطلب نفساً على أعلى قدر من النقاء الإنساني؛ نفساً حريصة تماماً ولا تتعب من أن تكون نافعةً للإخوة، لأن الكهنوت هو عمل الله، الذي أحبه وقام به من محبته. هذا هو بالضبط ما أكده المسيح لبطرس ثلاث مرات، وكل ما هو النسك المسيحي في الأساس.

كثيرون من المعلمين الروحيين العظماء، الذين لبسوا ثوب النسك بكل تواضع حقيقي، تراجعوا أمام دخول مراتب الكهنوت، لأنهم اعتبروه أعلى من طاقتهم بكثير. كان هؤلاء النساك العظماء والحقيقيون في الواقع أكثر أهلية للكهنوت من الآخرين الذين سعوا إليه علناً بدلاً من تجنبه، معتبرين أنفسهم الأكثر استحقاقاً له بسبب سمو ونقاء قيمهم الرهبانية. يقول القديس سمعان: لا شك أن المُثل الرهبانية تتناسب تماماً مع الدعوة الكهنوتية السامية النقية. في الواقع، الكنيسة تعرف ذلك، ولذلك أوكلت حمايتها إلى النساك القديسين. لقد صارت عادةً أن يرقّى الكهنة النساك إلى رئاسة الكنيسة، ويُطلب من هؤلاء الكهنة، المتقدمين إلى الرئاسة أن يتخذوا أولاً ثوب النسك[١].

يرى القديس سمعان أن ربط الكهنة النساك بالمراتب العليا من الكهنوت يمثل النظرة السامية نحو حُماة الكنيسة الأمناء الإلهيين. ومع ذلك، غالباً ما يحدث أن الكهنة النساك أنفسهم يفسدون ويجعلون مثل هذه النظرة السامية عديمة الفائدة! ما هو سبب مثل هذه المشكلة وكيف يمكن علاجها؟

إن المشكلة في هذه الحالة، بحسب القديس سمعان، هي ابتعاد هؤلاء الكهنة عن مُثُلهم الرهبانية. بإفسادهم لثوبهم النسكي يفشلون في تقديم كهنوتهم بشكل مستحق. عادة ما يكون هؤلاء النساك مهتمين فقط بالحصول على هذه السلطة الإلهية. ولذلك يوظفون كل قواهم ويضحون بكل ما يملكون في سبيل تحقيق ذلك. ومع ذلك، بمجرد حصولهم عليها، يثبتون أنهم غير جديرين بممارستها. إنهم يفعلون عكس ما يُفترَض بهم أن يفعلوا، على حساب أنفسهم والكهنوت نفسه.

يقول القديس سمعان: لا ينبغي بأحد أن يطمح إلى نيل الحلة الكهنوتية لكي يصعد على سلم الكهنوت. يجب على كل من يُنتخب للكهنوت أن يفكر أولاً في هدفه الإلهي والسامي، حتى يتواضع مع السيد الذي تواضع ويلبس صورته. غالباً ما يؤدي الفشل في ذلك إلى قيام الكهنة المُعيَّنين حديثاً بتحويل هذا الأمر الإلهي إلى مصدر غرور وعمى. وهذا ليس بسبب الكهنوت في حد ذاته، بل بسبب اختيار الكهنة، الذين لا تُوجّه أذهانهم نحو الحق الإلهي، بل يُترَكون ليتثاءبوا في الكسل وليتعلقوا، أو حرفياً ليتسمّروا، بالأمور الدُّنيا والتي تعود إلى الأنانية.

١ وبحسب المعلّم الطيب الذكر يوحنا رومانيدس، فإن هذا التقليد بدأ مع سمعان اللاهوتي الجديد.

يقول القديس سمعان: لا ينبغي للكهنة أن يفكروا أو يسلكوا بهذه الطريقة. حتى أنه يلوم نفسه لأنه وقع في كثير من الأحيان تحت سلطان أفكار مماثلة من الكبرياء والعمى. ومع ذلك، فهو في هذا الصدد لا يتردد في توضيح ما يعرف أنه إلهي وصحيح. ويقول إن هذا هو ما يجب تقديمه بوضوح حتى تتم إدانة الكهنة في حالة خداع أنفسهم بأفكار غير لائقة. إلى ذلك، من النافع بالحقيقة للكهنة أن يتذكروا ما يليق بهم وما هي الأفكار الصالحة لهم حقاً. إن السماح إذن بحركات الفكر غير اللائقة وهجمات الأفكار أمر غير لائق بالكهنة، أي أنه ليس من الممارسة الصحيحة لإرادتهم الحرة. ومن ناحية أخرى، فإن الانخداع هو نتيجة تبني الأهواء. لكن حرية الكهنة الحقيقية هي أنهم بعد أن يتوصلوا إلى التعرف على مصلحتهم الحقيقية يعودون بإرادتهم الحرة إلى ما هو أعظم وحقيقي. إن الفشل في القيام بذلك يستوجب الإدانة. على العكس من ذلك، فإن الاستعداد للخضوع لفحص الذات بغرض استعادة الاستقامة هو في الواقع واجب وامتياز مقدس. يحتاج الكهنة إلى فحص أنفسهم في ما يتعلق بمن يخدمون، وعمل مَن هم يعملون، وصورة مَن هم يحملون. فما هي الصورة الحقيقية للكاهن في ظل كل هذا؟

صورة الكهنوت الحقيقية

الكهنة هم خدام خالق الكل، وعليهم أن يساهموا في استعادة الذين تم تغريبهم باختيارهم الحر وسقطوا في الشر. الكهنة هم خدام العمل الإلهي الأعظم، الذي به يتم لمّ شمل الكائنات الأرضية والسماوية، وتذوب العداوة، ويصنع الله السلام مع البشر، ويتوقف كل خداع، وينطفئ سلطان الشياطين، ويصبح البشر متساوين مع الملائكة أبناءً لله وآلهة بالنعمة. هذا هو العمل الذي يقوم به الكهنة بطريقة لا توصف من خلال ليتورجياتهم، والمواهب التي يوزعونها، والحقائق التي يُدخلون الآخرين إليها. إنهم يحملون صورة إلهية حقاً، وهي الأسمى، كل واحد حسب استحقاقه.

الأسقف، بشكل أكثر تحديداً، هو أيقونة الله بامتياز، وكذلك الكهنة من بعده بسبب الموهبة التي تلقوها وخاصة بسبب تقديمهم الذبيحة السرية. الأسقف هو أيقونة أبي الأنوار، الذي منه تأتي كل عطية صالحة وكل موهبة كاملة، ولذلك يعتبر منيراً. يقف الكاهن أيضاً كنموذج من الرتب السامية ويعمل بمثابة نور ثانٍ ينقل الأسرار ويقوم بخدمتها ويسمى على هذا الأساس مديراً وموزعاً. والشماس هو المرتبة الثالثة وهو نموذج للملائكة الخادمين الذين يُرسلون دائماً إلى الذين يرثون الخلاص. ولهذا دُعي بالكارز، المُهيّئ، المُدبر والموزّع أيضاً. الثلاثة هم حراس (παραστάται) للإله الواحد والتقدمة المضحّية. إنهم يشتركون فيه [الله] ويصيرون معه جسداً واحداً، ممجَدين معه، ناقلين للنعمة الإلهية، مع أن هذه الوظيفة الأخيرة تتم حسب الترتيب الذي أُعطي لكل واحد منهم من فوق.

طريق المحبة الصعبة - ٢

الميتروبوليت جوزيف

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

مدخل

في آذار ٢٠٢٣ صدر كتاب للميتروبوليت جوزيف (بوب) مطران أبرشية أوروبا الغربية والجنوبية في الكنيسة الرومانية، بعنوان "طريق المحبة الصعبة"، سوف تصدر ترجمته على فصول في الأعداد المقبلة من التراث الأرثوذكسي.

.Source: Le Metropolite Jospeh. La Voie du Difficile Amour. Edition Apostolia. Paris. 2023

عندما تأتي النعمة تمنحنا كل شيء

مغبوطة النفس التي تحب أخاها لأن أخي هو حياتي (القديس سلوان الأثوسي)[٢]

كثيراً ما نسمع من حولنا نفوساً أحزنتها المعاناة الطويلة، يتجاهلها الجميع، محرومة من فرح الحياة، تقول أن في الكنيسة، في رعيتهم، لم يعد هناك محبة، وأنهم لا يشعرون بالمحبة حتى داخل جماعاتهم الرعائية. من الصعب أن نناقض مثل هذا الشخص، خاصة وأن الأنانية والفردية في المجتمعات التي نعيش فيها تؤثّر أيضا على حياة جماعاتنا. نحن نعيش في هذا العالم وغالباً ما يتعين علينا أن نظهر بشكل مختلف عما نحن عليه بالفعل أو عمّا نود أن نكون عليه. الآن "كل واحد من جيراننا"، يكتب القديس بورفيريوس، "كل واحد من أقربائنا هو لحم من لحمنا[٣]. هل من الممكن أن أظهر اللامبالاة تجاهه؟ أو أتسبب له بالمرارة؟ أو أن أكرهه؟"[٤] هذا هو السؤال الذي يطرحه علينا المسيح في الإنجيل: إذا كنت أستطيع أن أدّعي أنني له، ألا أرى مَن هو بجانبي؟ هل استطيع إيقاف أفكاري عن مكانه طوال اليوم؟ أأستطيع أن أصلي إلى الرب ليساعده ويشفيه؟ هل أستطيع، على الرغم من ضعفاتي وعيوبي، أن أذهب لمقابلته بوجه مشرق ومبتسم، وأعرف الصعوبات التي يمر بها، وأتعاطف معه، أي أن أحمل عبئه معه؟

يتابع القديس بورفيريوس: "ما يجب أن يشغلنا، يا أبنائي، هو محبة الآخر، إنها روحه. كل ما نقوم به، من صلاة وإرشاد ووصايا، فلنفعله بمحبة. بدون المحبة لا تنفع الصلاة، والإرشاد يؤذي، والوصية تضر الآخر وتدمره. إن هذا الآخر يشعر، في الواقع، إذا كنا نحبه أو لا نحبه، ويتفاعل على أساس ذلك. محبة محبة محبة! إن محبة أخينا تهيئنا لأن نحب المسيح أكثر. أليس الأمر حلواً؟"[٥]

إذاً، إن لم نجد الشجاعة لسلوك هذا الطريق، فلنتذكر أن المسيح قد سلكه ولا يزال يسير عليه باستمرار من أجلنا، وقد أعطانا القوة لنتبعه أيضاً. "من السهل جداً أن نصل إلى هذه النقطة. يتطلب الأمر حُسن النية؛ لهذا السبب فإنَّ الله مستعد أن يدخل فينا. فهو يقرع الباب ويجدد كل شيء، كما يقول في رؤيا يوحنا[٦]. ويتغير تفكيرنا إذ يتحرر من الشر، فيصبح أفضل وأقدس وأكثر مرونة [...]. لكي نجعل أنفسنا مستحقين له، يجب أن

2 Archimandrite Sophrony, Saint Silouane l'Athonite (1866-1938) Vie, doctrine et écrits, Cerf, 2010, p. 355.
3 Cf. Eph 5, 30.
4 Saint Porphyre , Vie et paroles, d'Homme , Lausanne, 2009, p.233.
5 Ibid., p.235.
6 Cf. Apoc 3, 20-21, S.

نموت حسب الإنسان العتيق، حتى لا نموت مرة أخرى أبداً. عندها نعيش في المسيح، مندمجين في جسد الكنيسة بأكمله. هكذا تأتي نعمة الله. وعندما تأتي النعمة، فإنها تعطينا كل شيء[٧].

الفنّ الكبير

"عَبْدُكَ أَنَا. فَهِّمْنِي فَأَعْرِفَ شَهَادَاتِكَ" (مزمور ١٢٥:١١٧).

هناك العديد من المشاكل اليومية التي نواجهها حتى في الكنيسة. نتوقع أن تكون مختلفة هنا عن تلك التي نواجهها في المجتمع (الذي نحن جزء منه أيضاً) وفي ما يتعلق به. نحن ببساطة نتوقع من الإنسان أن يكون أفضل، وأن يظهر أفضل ما لديه، وأن يحارب فقط من خلال إظهار الخير فيه، لكننا ننسى - ما هو المهم على وجه الخصوص- أننا نأتي إلى المسيح والكنيسة كما نحن مع كل مشاكلنا. وفي كثير من الأحيان نشعر بالإحباط ونضع علاقتنا مع المسيح – الذي جسده الكنيسة – على أساس علاقتنا مع الآخرين.

لكن "الإصرار على أن يصبح الآخرون صالحين"، يكتب القديس بورفيريوس، "ما هو إلا وسيلة لدفع أنفسنا إلى الأمام. وفي الواقع، هذا غير ممكن لنا، نحن نطالب به الآخرين ونصرُّ على هذه النقطة. إلى هذا، بينما يمكن إصلاح كل شيء بالصلاة، نحن نحزن، ونغضب، ونتهم الآخرين[٨]. يمكن للقريب أحياناً أن يقدّسنا ويقربنا من المسيح. ولكنه أيضاً يمكن أن يصدمنا ويجعلنا نتعثر أو يبعدنا عن المسيح. إذا كنا في الحالة الأولى، فلنشكر الرب لأنه جعلنا نعبر طريق من ينير طريقنا نحوه. أما إذا كنا في الحالة الثانية، فلنحاول أن نكون في علاقة شخصية مع المسيح، الذي لن يخيبنا أبداً إذا قبلنا الصليب وتبعناه. "المسيحي لطيف"، يتابع القديس بورفيريوس. يجب أن نفضّل أن نكون ضحايا الظلم عندما يتغلغل فينا الخير والمحبة، فننسى الشر الذي حـــــــدث لنا. وهنا يكمن السر. عندما يأتي الشر من مكان بعيد لا يمكنك تجنبه. لكن الفن العظيم يكمن في التعامل معه بازدراء. بنعمة الله حتى وإن رأيته فلن تتأثر، بل تمتلئ نعمة[٩].

المجنون لم يأتِ به أحد إلى المسيح[١٠]. ومع أنه كان ممسوساً بالكامل، إلا أنه اقترب ونال محبة المسيح ونعمة الشفاء وصار رسول محبة متجسداً، معترفاً للعالم بما صنعه الله من خير. "هذا هو التميز الذي يجب أن تكتسبه خلال حياتك. تعمّقْ في كل نقطة مهما كانت، ولا تنظرْ إلى كل شيء بطريقة سطحية. إن لم نتحرك نحو المسيح، إن لم نظهر الصبر، إن كنا نتألم بدون مبرر، نكون في عذاب مستمر. السر هو مقاربة جميع المواقف من زاوية الروح"[١١]

الوفر الروحي الصغير

"لأَنَّ مَنْ لَهُ سَيُعْطَى، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي يَظُنُّهُ لَهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ" (لوقا١٨:٨).

نحن نعيش في زمن يمكن فيه فقدان الإيمان بسهولة. إن الإغراءات من الخارج، من العالم، تصل إلينا بسهولة شديدة، أحياناً في الأماكن النائية والخفية، من خلال وسائل الاتصال الحديثة. وعندما نعتقد أن لدينا القليل من السلام، والقليل من الصلاة، والتفكير في الله، والقليل من الفرح الروحي، قد نسمح لأنفسنا بالوقوع في فخاخ العالم الخارجي، فنفقد هذا القليل الذي نملكه أو نعتقد أننا نملكه.

ولكن في الوقت نفسه، تطورت إمكانية التواصل فيما بيننا بمعنى ما هو خير، وما هو حقيقي، والخبرة التي يمكننا أن نتبادلها مع بعضنا البعض، والإيمان الذي يمكننا التحدث عنه بحرية كاملة. يمكننا أن ننمي النعمة الموجودة في نفوسنا من خلال خبرة وإيمان الآخرين، وهي حقائق يمكننا أن نعرفها بسهولة اليوم. أحياناً نتقبَّل ما يختبره الآخرون وأحياناً نرفضه.

نحن نتمرد على الشكل الذي يتخذه ما يبدو لنا للوهلة الأولى أنه غير مثير للاهتمام أو محظور.

7 Saint Porphyre, Vie et paroles, ibid., p. 234.
8 Saint Porphyre , Vie et paroles, ibid., p. 240.
9 Ibid., p. 237.
10 Cf. Lc 8, 26-39.
11 Saint Porphyre, Vie et paroles, ibid., p.237.

فلنحرص إذاً على الإصغاء والترحيب بالدعوة التي يسمعها الرب في نفوسنا، لأن "الرجل الذي يحب الله يسعى دائماً إلى الاستنارة من فوق، ويعطي أذنه الداخلية باستمرار لصوت الله"[١٢]، يكتب القديس صفروني.
لنستقبل بذار النعمة لا على قلب متحجر، بل على تربة طيبة مضيافة، على قلب حساس، لأن "للتواضع تُمنح نعمة"، كما يقول القديس إسحق[١٣]. إن نعمة الله وصوته يأتيان أحياناً من داخل أنفسنا، وأحياناً من المحيطين بنا وما يختبرونه.
فلنميّز كل شيء، لنرَ ماذا وبمن يزرع المسيح دعوته فينا في الزمن الذي نعيش فيه، حتى لا نفقد بيضة العش الروحية الصغيرة التي جمعناها، بل نزيدها.

هُوَذَا الآنَ وَقْتٌ مَقْبُولٌ

"من أجل المسيح، تصبح النعمة طعاماً للجياع وشراباً حلواً للعطاش ولباساً للبردانين وراحة للمتعبين ويقيناً كاملاً للذين يصلّون وعزاءً للباكين" (مرقس الناسك)[١٤].
إن أبواب الصوم المباركة تنفتح أمامنا كل عام، أبواب الصلاة والتوبة، التي تتيح لنا الوصول، وتهيئنا للفهم الروحي لما يعانيه المسيح ابن الله معنا ولأجلنا، وما ينقله لنا من خلال قيامته. يرسم الصوم أمامنا صورة التخلّي والنسك والألم مع المسيح، ويخفي في سر الصليب نور القيامة والتحرر من الموت الذي إليه نتجه معه. يمكننا أن نقيم لأنفسنا امتناعات عديدة في هذا الوقت المبارك من الصوم المقدس، ولكن قبل كل شيء، من المناسب أن نفحص نفوسنا لنقرأ جراحاتها.
يشفي الصوم جراحنا إذ يمنحنا الفرصة لتقديم الصدقات المرتبطة به. الصدقات، سواء كانت روحية أو مادية، تقربنا من المسيح الرحوم، الذي يتماثل مع المحتاجين. نحن بحاجة إلى مغفرة الله التي تعيد لنا حريتنا الداخلية. ولكن إن لم نغفر لمن أساء إلينا، فإننا نفشل في الاقتراب من المسيح الذي جاء ليحمل إلينا مغفرة الآب. كما أن الصوم هو فرصة لنا لنكثر من الصلاة بكل تواضع، متوسلين إلى المسيح – السامري الرحيم – أن يضمد جراحاتنا.
"كما أن صحة العيون تثير الرغبة في رؤية النور، كذلك الصوم الذي يمارس بتمييز يثير الرغبة في الصلاة"، يكتب القديس إسحق[١٥]. إن فرح الصوم يكون في شفائنا من الصراع الداخلي الذي نخرج منه مهزومين، لأننا في الصوم وفي الصلاة وفي العطاء وفي الغفران نلتقي المسيح. "بمجرد أن يبدأ الإنسان بالصيام، يشعر في أفكاره بالرغبة في التحدث مع الله. إن الجسد الصائم لا يتحمل أن يبيت الليل كله نائماً على فراشه"[١٦]. من محبته لنا، نحن البشر، يصير الله شريكاً في حالتنا البشرية، ليجعلنا نسكن معه في الحقائق السماوية.

12 Saint Silouane l'Athonite, ibid., p. 77.
13 Discours ascétiques, 37, 2.
14 Marc l'Ascète, « De ceux qui pensent être justifiés par les œuvres », 117, in Philocalie, vol. I, DDB-Lattès, 1995, p. 167.
15 Saint Isaac le Syrien , Discours ascétiques, ibid., 85, 16.
16 Ibid. 85, 17.

ما معنى أن نؤمن بالله؟

الجزء الأول من "إرشادات روحية للقديسة أرسانيا من دير أوست ميدفيديتس"

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

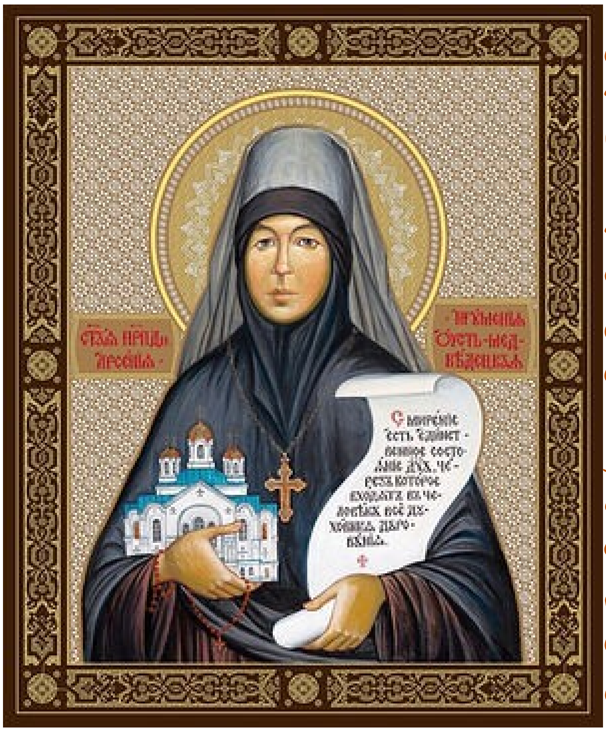

في ٢١ تشرين الأول ٢٠١٦، قام المجمع المقدس للكنيسة الأرثوذكسية الروسية بإعلان قداسة القديسة أرسانيا من دير أوست ميدفيديتس (Ust-Medvedits) كقديسة مكرمةٍ محليًا في أبرشية فولغوغراد.
تنحدر رئيسة الدير أرسانيا (١٨٣٣-١٩٠٥) من عائلة نبيلة من منطقة (دون). في عمر السابعة عشرة، دخلت آنا ميخائيلوفا دير أوست ميدفيديتس بكامل إرادتها. بلغ الدير ذروته الروحية خلال سنوات رئاستها الأربعين من عام ١٨٦٤ حتى رقادها في ٣ آب ١٩٠٥.
إلى جانب أنشطتها التعليمية والخيرية، فإن الثمار الرئيسية لأتعاب أرسانيا الموقرة كانت كاتدرائية قازان، التي تم تشييدها بين عامي ١٧٨٥ و ١٨٨٥، والكهوف الشهيرة التي تم حفرها على شاكلة مغاور كييف. واليوم يقبع هناك الضريح الرئيسي للدير واللوح الحجري العجائبي الذي تظهر عليه آثار أيدي وركب الناس الذين يركعون للصلاة، حيث يأتي المؤمنون ليتضرعوا إلى القديسة أرسانيا لنيل الأشفية وحسن ترتيب الشؤون العالمية وازدهار الحياة العائلية.
إلى جانب حياتها المقدسة، تركت لنا القديسة أرسانيا كتاباتٍ قيمةً حول الحياة الروحية، والتي نقدمها إكراماً لتذكار إعلان قداستها.

ما معنى أن نؤمن بالله؟

ما معنى أن نؤمن بالله؟ من الضروري ألا نكتفي بالإيمان بوجود الله الخالق وبالخلاص المُعطى لنا بيسوع المسيح، بل يجب أن نؤمن إيماناً غير متزعزع، في كل ظروف الحياة مهما كانت صعبة، بأن الله رحيم ويريد خلاصنا. إن رؤية هذا ومعرفة خيرنا الأبدي وليس المؤقت فقط، يقودانا إلى الله كأبٍ محبٍ وحكيمٍ يرشد أبناءه بمحبة متساوية وحنانٍ وحزم. لذلك، علينا أن نقبل كل شيء برجاء برحمة الله، سائلين معونته فقط في كل تجربة وغواية، سواء أتتنا من الخارج أو من الضعفات أو من البشر الذين هم أدوات الله لخلاصنا، وغالباً ما يكون الأمر متبادلاً [أي أننا أدوات الله لخلاصهم أيضاً. المترجم]. إن تواضعنا يخلّص حتى أولئك الذين يحزنوننا.

ذكر الله

إن تشتت أفكارنا وانجذاب أذهاننا نحو اهتماماتٍ باطلةٍ يُعيقنا عن ذكر الله بلا انقطاع. فقط حين تكون حياتنا موجهة بأكملها نحو الله نصبح قادرين بواسطة الإيمان على رؤيته في كل شيء– في أهم ظروف الحياة

وفي أبسطها – ونبدأ بالتسليم لمشيئته في كل شيء، الأمر الذي بدونه لا يمكن أن يوجد ذكرٌ لله ولا صلاة نقية غير منقطعة. إن للمشاعر والأهواء تأثير أكثر ضرراً على ذكر الله، وبالتالي على الصلاة. لذلك علينا أن ننتبه باستمرارٍ وبشكلٍ صارمٍ إلى القلب والأمور التي تجذبه مقاومين إياها بحزمٍ، لأن الانجذاب يقود النفس إلى ظلامٍ دامس. كل هوىً هو معاناة للنفس ومرض يستلزم علاجاً فورياً. اليأس وأشكالٌ أخرى من برودة القلب تجاه العمل الروحي هي أمراض. كما أن الإنسان الذي كان مصاباً بالحمى يبقى ضعيفاً خاملاً وغير قادرٍ على العمل حتى بعد تجاوز المرض، كذلك تصبح النفس المريضة بالهوى غير مبالية وضعيفة ومتقلقلة وعديمة الحس وغير قادرة على القيام بالعمل الروحي. هذه أهواء روحية. التسلح وخوض معركة ضد الأهواء وهزيمتها هو عملنا الرئيسي. علينا أن نكد بحماسةٍ في هذه المعركة ضد الأهواء الروحية. تكشف لنا الصلاة عن الأهواء المعششة في قلوبنا. أياً يكن الهوى الذي يعيق صلاتنا، علينا أن نحاربه على الفور، والصلاة نفسها ستساعدنا في هذه المعركة، وبالصلاة يتم اجتثاث الهوى.

في الصلاة

صلاة الإيمان المترافقة مع وعي المرء لحالته الخاطئة وضعفه العام وعجزه هي الشكل الأوحد للصلاة التي لا ضلال فيها بالنسبة للإنسان الذي لم يحرز الصلاة النقية. ليس من الملائم أن أتكلم عن الصلاة النقية كَوني لا أملكها. إنها هبة من الله وممكنة من خلال عمل نعمة الله في القلب، بل إنها بالأحرى فعلُ النعمة عَينه، والسبيل إليها هو النقاوة. ليس من الصعب اكتساب نقاوة الأفكار ونقاوة الحواس من خلال التوحّد والقراءة والتدرب في الصلاة. وأما نقاوة القلب فنكتسبها بميتاتٍ كثيرة – إنها قَطعٌ للأهواء. حاول أن تقصد مكاناً منعزلاً لبعض الوقت، حاول أن تطرح كل الاهتمامات والمخاوف، واستسلم للصلاة، وسترى كيف ستهدأ الأفكار المضطربة والمشاعر المتقلقلة، وستبدأ بالصلاة بنزعةٍ سلامية ويقظة. ولكن، هناك في الصدر ثقلٌ غامضٌ يضغط ويضغط، ويقبع فوق القلب كصخرةٍ بدون أي دوافعَ أو رغباتٍ، مسبباً ظلاماً وضيقاً يقف كحائط بين النفس والرب. يمكن هدم هذا الحائط بنعمة الله فقط، بجهادنا الثابت العزم ضد الأهواء بحسب وصايا الله. وبالنسبة لنا، نحن العائشين في ظلمة الأهواء، فإننا بحاجة إلى صلاةٍ من قلبٍ منسحقٍ مع إيمانٍ بالرب الذي يخلّص.

صلاة يسوع هي تعبير عن شعور حيٍّ بالإيمان. إن لم نقتنِ الصلاة بسبب الكسل أو التشتت، فعلينا أن نلتمسها بجهدٍ كبير. حين تغادرنا الصلاة بفعل ثورة الأهواء، فعلينا عندها أن نتصارع مع جميع أسباب الأهواء وأن نقطعها. حين تعجز النفس عن إيجاد الصلاة بسبب اليأس، أي بسبب الظلام الروحي، فمن الأفضل عندها الثبات في الاعتراف بذاك الذي يُخلّص.

تتطلب الصلاة نقاوة نفس، ويتم اقتناؤها عبر أفعال التضحية بالذات بحسب وصايا الله.

في السلام الروحي والصلاة

إننا بحاجةٍ للسلام الروحي، ليس فقط كي نمكث في صلاة مستمرة، بل حتى لإتمام قانون الصلاة. إذا ما تم انتهاك السلام الروحي بطريقةٍ ما، فإما الصلاة تصبح شفوية فقط أو أنها تُردَّد بالذهن بمجهود كبير، ولا تُردَّد بالقلب أبداً. إن السلام الروحي الذي هو خاصية "القلب النقي" يُقتنى، أو من الأصح القول أنَّ الربَّ يرسله إلينا، بعد الكثير من الأتعاب والجهادات ضد الأهواء الروحية وبعد الكثير من نكران الذات. لكن دعُونا نحن الخطأة الذين نأكل من فتات موائد الأغنياء نسعى لاكتساب السلام أثناء الصلاة على الأقل. إن ذلك يتطلب جهاداً صعباً وطويلاً، وقطع الأفكار تماماً أثناء الصلاة، منكرين الحواس والعالم المحيط بأسره، مسلّمين كل شيء لمشيئة الله، بثبات قلبٍ غير متزعزع في الإيمان، بإيمانٍ لا ريب فيه بقوة الله. بثبات القلب هذا تصبح الصلاة سلامية. ولكن إذا تم تحقيق هذه الحالة بالأتعاب ولم تكن عطية نعمة الله، فإنَّه أحياناً ما ترهق

عالمنا الداخليَّ وتُظلمه حالتان متضادتان: إما برودة القلب أو متعة الحواس، فتحلُّ محلَّ اضطراب الأفكار وهيجان المشاعر. إن برودة القلب وحشٌ لا يمكن التغلب عليه بالقوة البشرية. ويتطلب تليين القلب الكثير من أعمال المحبة تجاه القريب، والكثير من الرحمة تجاه نقائص الآخرين ومسامحتهم. وأثناء الصلاة التي نترجى فيها قوة الله، علينا الصلاة لأجل قريبنا ولأجل العالم أجمع ولغفران خطايا جميع الخطأة الذين أنا أولهم. عندها ستزول البرودة ويأتي الفرح الذي يثير الحواس ويقطع السلام. عندها تكون هناك الحاجة إلى تواضع عميق، بل وحتى تركٌ مؤقت للصلاة بسبب عدم استحقاقنا وبسبب أنانيتنا تجاه القريب بالقول أو الفعل. فقط في أعماق التواضع وإدانة الذات يمكن إيجاد السلام الداخلي الذي يسهل الصلاة الحقيقية.

في التوبة

على غرار الصلاة، يجب ألا تكون التوبة كئيبة. التوبة الحقيقية هي عطية من الله، مليئة بالانسحاق. يجب أن تكون توبتنا فقط وعياً ويقيناً بحالتنا الخاطئة وعدم الاتكال على الذات. هذا ما يقود إلى التوبة.

غاية الحياة

إن غاية حياة الإنسان هي الشركة مع الله، ألا وهي خلاص نفوسنا وغبطتها الأبدية. وسائل العمل بوصايا الله هي: الخضوع لمشيئته التي تكشف نفسها في ظروف الحياة، والتعب لتطهير القلب من الأهواء، والتواضع الذي يقود إلى الإيمان وإلى قبول نعمته التي بدونها لا يمكن لأي شيء صالح أو مقدس أن يتحقق فينا.

وصايا الله

أشار الرب إلى وصيتين رئيسيتين تتضمَّنان كل شيء: محبة الله ومحبة القريب. ولكنْ، هناك وصايا قد أشار إليها في التطويبات، حين قال طوبى لأنقياء القلوب، وغير ذلك. تشير كلمات المسيح هذه إلى ما يجب أن نقتنيه من سمات القلب والنفس، وعندها فقط يمكننا إتمام تلك الوصايا الأسمى، والتي يُقال أنها تتضمن كل شيء فيها [أي كل الوصايا الأخرى]. فلنبدأ بالتطويبة الأولى: المسكنة بالروح تعني تحطيم الأنا كي يرى المرء كل عجز نفسه وكل عيوبها وخطاياها. إذا ما رأت النفس وعرفت وشعرت بذاتها بهذه الطريقة، فمن المؤكد أنها ستأتي إلى الإيمان وإلى القناعة بأنّه في الله، وفي الله وحده، تكمن قوتها وتنقيتها وخلاصها، وإيمان النفس هذا هو الباب إلى ملكوت السموات، ليس فقط إلى ملكوت السموات الذي سيكون ميراث النفوس المقدسة في الأبدية، بل أيضاً إلى الملكوت الذي في داخلنا. إن مسكنة الروح هذه مباركة بحق، لأنَّ النفس التي أدركت ضعفها ودنسها وعجزها عن أي أمرٍ صالح تفقد إيمانها بنفسها وتتوقف عن وضع رجائها في نفسها، وذلك هو بداية الإيمان والرجاء بالله. تجدُ النفس الله بالتحديد حيث تفقد ذاتها. إنه لأمر صعبٌ ومرٌ أن يبقى المرء في هذه المسكنة والقنوط، إذ تشعر النفس أنها تهلك وأن لا خلاص لها ولا معونة من أي مكان. ولكنْ يجب التغلب على حالة القنوط هذه للوصول إلى الإيمان. علينا ألا نكتفي بمعرفة ضعفنا بالذهن، بل أن نشعر به بكل كياننا ونعيش فيه، وعندها فقط تصل النفس إلى الإيمان الحي بالله. ستراه يعمل في كل شيء حين تتوقف هي، بكل "أناها"، عن التصرف في كل شيء. ستراه يسود حين تتوقف هي عن الاتكال على منطقها في كل شيء.

افتحوا الإنجيل، اقرؤه، وتعمقوا في ما علّمه الرب لتلاميذه، وستتعلمون ما هي الوصايا التي أعطاها لأتباعه. علمهم أن ينكروا كل شيء، وذواتهم أولاً، حتى إلى درجة رفض نفوسهم ذاتها. هذا الإنكار ضروري لأن النفس مدنَّسة جداً، وفيها الكثير الكثير من الأهواء التي تتعارض مع روح المسيح، والتي بدون قطعها تصبح الشركة مع المسيح مستحيلة. إن إنكار الذات يصبح ممكناً فقط حين يكون لدينا هدفٌ ننكر من أجله ذواتنا ونقطع أهواءنا. هذا الهدف هو محبة القريب. لإتمام واجب محبة القريب علينا أن نهمل ذواتنا وننكر نفوسنا. أظهر الرب هذه المحبة بالكلام والمثال. علمنا أن نغفر لأعدائنا، أن نرحم الضعفاء، ألا ندين الخطأة، أن نضحي

بأنفسنا لصالح الآخرين. لا يمكن إتمام وصية محبة القريب ما لم ننكر نزوعنا للخيرات الأرضية. يمكننا إنكار ذواتنا والخضوع في كل شيء لقريبنا حين نرى الحياة الأبدية، حين نسعى لمحبة الأبدي، الصلاح اللامتغير، المثاليّ وحده – الله.

وهذه هي أولى وأهم وصايا المسيح: أن نحب الرب بكل قلبنا وذهننا وقوتنا. خلاصة القول أن الرب أشار إلى كمال الطريق الروحي، ولكن حياة الإنسان بأكملها غير كافية لإتقان وإتمام هذه الوصية من المسيح. أنكروا ذواتكم. ولكن، ما معنى ذلك؟ أن تعرف نفسك على نحو سليم، أن ترى كل دنس نفسك وكل أهوائها وضعفاتها – هذه هي المهمة التي يجب أن يؤديها مدى الحياة أولئك الذين يرومون الخلاص. قلت "الخلاص"، ولكنْ، ما الذي يتم تخليصنا منه؟ إننا نخلص من الهلاك الذي نجد أنفسنا فيه. هذا يعني بأن اكتشاف الهلاك المحيط بنا هو السؤال الأكثر إلحاحاً. هذا هو هلاكنا المشترك – الهلاك الذي أعددناه لأنفسنا من أهوائنا وخطايانا، هلاك لا نراه داخل ذواتنا ولا نشتبه بوجوده حتى. في الوقت ذاته، ما يحيا فينا يمنعنا من اتباع المسيح بالرغم من تصميمنا ورغبتنا. لذلك علينا قبل كل شيء أن ننقي المواضع السرية من النفس، أن ننقي الإناء الذي، بحسب قول الرب، يخرج منه الزنى والقتل والسرقة وكل أنواع الأهواء والخطايا.

التواضع

التواضع هو حالة النفس الوحيدة التي من خلالها ينال الإنسان جميع العطايا الروحية. إنها الباب الذي يفتح القلب ويجعله قابلاً للأحاسيس الروحية. يجلب التواضع هدوءاً ثابتاً إلى القلب، وسلاماً إلى الذهن، ويقظة إلى الأفكار. التواضع هو القوة التي تحتضن القلب وتعطيه لمحةً عن ذاك الشعور بالحياة الأبدية، والذي لا يمكنه أن يدخل قلب الإنسان الجسداني. التواضع يعطي الذهن نقاوته الأصلية، فيبدأ يرى بوضوحٍ الفرق بين الخير والشر في كل شيء. لا يمكن أن توجد صلاة نقية روحية إلى أن يشعر القلب بالتواضع.

Source: St. Arsenia of Ust-Medvedits. What Does it Mean to Believe in God? Spiritual Instructions. Part 1. Translation by Jesse Dominick. Azbyka.ru. 10/25/2023. https://orthochristian.com/156903.html

أهمية الدراسات الآبائية للدراسات اللاهوتية

جان كلود لارشيه
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

لإظهار أهمية الدراسات الآبائية للدراسات اللاهوتية، يجب أن نتذكر أولاً كيف تتصوّر الكنيسة الأرثوذكسية اللاهوت.

١. اللاهوت الأرثوذكسي ليس تخميناً مجرداً ومجانياً يسمح بالابتداع

يجب علينا أولاً أن نلاحظ أن اللاهوت الأرثوذكسي ليس – كما هو في الكثلكة منذ السكولاستيكية التي أعطت الأولية للعقل، وكما هو الحال أيضاً في البروتستانتية – تفكيراً عقلانياً بحتاً، أو تأملاً مجرداً يمكن للاهوتي أن يطوره اعتباطياً (أي دون سبب محدد) وبحرية، أي مثل الفنان، باتّباع رغباته أو ذوقه أو خياله، أو رغبته في الابتكار.

في حين أن الكثلكة والبروتستانتية تعترفان بإمكانية تطور العقيدة، وبالتالي تبرران الإبداع في اللاهوت (وهو ما يفسر الابتكارات التي ظهرت في الكثلكة والبروتستانتية عبر تاريخهما)، فإن اللاهوت الأرثوذكسي يستبعد أي ابتكار عقائدي ولا يسمح إلا بالإبداع اللاهوتي للتعبير عن نفس الحقيقة الثابتة بكلمات مختلفةبهدف توضيحها.

٢. قد يكون للاهوت الأرثوذكسي تعبيرات مختلفة، لكنه يعبّر دائماً عن نفس الإيمان

كان للاهوت الأرثوذكسي دائماً ثلاثة أهداف أو ثلاث وظائف: التعليم والدفاع والتمجيد[17]. في هذه الأشكال الثلاثة، لم يكن هدفه دائماً التعبير عن الفكر الشخصي للّاهوتي، بل التعبير عن إيمان الكنيسة الثابت وشرحه والدفاع عنه أحياناً. قد تكون التعبيرات المفاهيمية واللفظية متغيرة، اعتماداً على احتياجات المجتمعات المختلفة والعصور المختلفة. على سبيل المثال، مفاهيم "الشخص"، "الأقنوم"، "الجوهر"، "الطبيعة"، "التساوي في الجوهر"، "الاندماج في الأقنوم"، "القوى الإلهية"، وما إلى ذلك، وحتى فكرة "الثالوث" لا توجد حرفياً في الكتاب المقدس، ولكن محتواها موجود معَبراً عنه بشكل مختلف. ظهرت هذه المفاهيم الجديدة مع ضرورة إعادة صياغة محتوى الإيمان أو توضيحه، عندما لم تعد التعبيرات المتوفرة سابقاً كافية للأشخاص أو المجموعات الذين لم يعودوا يفهمونها بشكل صحيح، وبالتالي فهموها بطريقة منحرفة (هرطوقية) أو أصبحت ملتبسة عليهم. ولكنْ على الرغم من أن الكنيسة عرفت صيَغاً مختلفة للإيمان، إلا أنها حافظت على جوهر هذا الإيمان، وحفظت ونقلت بأمانة ما يسميه القديس بولس في رسالته الأولى إلى تلميذه تيموثاوس "الوديعة" (١تيموثاوس ٦:٢٠). أو ما زلنا نسميه بطريقة أكثر تقنية "الإعلان kerygma". لا يمكن للإيمان نفسه أن يتغير أبداً، لأن محتواه هو المسيح نفسه، ولأنَّ "يسوع المسيح هو هو أمساً واليوم، وإلى الأبد" كما يقول القديس بولس (عبرانيين ١٣:٨).

إن هوية الإيمان هذه، والمنقولة بأمانة عبر القرون، هي ما نسميه التقليد.

---

17 Pour un développement plus détaillé, voir ma conférence « Что та кое богословие? », *Вестник Православного Свято-Тихоновского гуманитарного университета*, I : 3 (41), май- июнь 2012, p. 117-131.

٣. اللاهوت الأرثوذكسي جزء من التقليد

بالنسبة للكنيسة الأرثوذكسية، للتقليد أساس ثلاثي: كتابي، ومجمعي، وآبائي.
الأسس الثلاثة مترابطة وتتداخل في الحياة الكنسية.
والمجامع تعبر عن إجماع الآباء الذين كانوا مجتمعين فيها؛ ويستمد الآباء في كتاباتهم الإلهام من الكتاب المقدس والمجامع السابقة؛ الكتاب المقدس في الكنيسة الأرثوذكسية يجب قراءته على أساس الإيمانِ كما حددته المجامع والفهمِ الذي قدمه الآباء.
على عكس المفهوم البروتستانتي، الذي يتمتع فيه الكتاب المقدس باستقلالية، ويشكل أساساً فريداً ومطلقاً ويمكن في الوقت نفسه أن يفسّره بحرية كل مؤمن، والمفهوم الكاثوليكي الذي يقتصر تفسير الكتاب المقدس فيه على السلطة التعليمية، ترى الكنيسة الأرثوذكسية أن قراءة الكتاب المقدس وتفسيره يندمجان في الحياة الكنسية. إذا كان صحيحاً أن الأسقف هو مفسر الكتاب المقدس بامتياز، فإن التفسير لا يرتبط بشخصه وحده، بل يجب أن يعبر عمّا تفكر فيه وتعيشه الكنيسة ككل، وكل تفسير جيد للكتاب المقدس يشير إلى تفسير آباء الكنيسة. وإن الحياة المقدسة والذكاء الروحي في الكنيسة هما معيار الجودة. أنتج العديد من آباء الكنيسة - وخاصة أوريجانوس، والقديس باسيليوس القيصري، والقديس غريغوريوس النيصي، وثيئودوريت القيروسي، والقديس كيرلس الإسكندري، والقديس يوحنا الذهبي الفم، والقديس ثيوفيلاكتوس البلغاري - أعمالاً تفسيرية ألهمت خلفاءهم وما تزال حتى اليوم تشكل معياراً ومرجعاً لكل من يريد فهم الكتاب المقدس والتعليق عليه.
وكما أنه ليس من الممكن الاندماج في التقليد الأرثوذكسي باستبعاد الكتاب المقدس والمجامع المقدسة التي أوضحت الإيمان الصحيح (orthē doxa) من خلال تحديداتها (horoi) وطريقة الحياة (ethos) من خلال قوانينها المقدسة، فإنه فلا يمكن الاندماج في التقليد والتعبير عنه باستبعاد الآباء.
على عكس الكنيسة الكاثوليكية التي غالباً ما تضع مفكري العصور الوسطى في المقدمة (مثل توما الأكويني)، والتي غالباً ما تعتبر الآباء القدامى كتّاباً كنسيين بسطاء عفا عليهم الزمن الآن (على سبيل المثال في كلية اللاهوت في ستراسبورغ، يُطلق على كرسي علم الآباء رسمياً اسم "الأدب المسيحي القديم")، وعلى عكس البروتستانتية التي تتجاهل آباء الكنيسة، فتقطع بشكل مباشر متخطية ستة عشر قرناً من الكتاب المقدس إلى لوثر أو كالفن، تقدّر الكنيسة الأرثوذكسية تسلسل الآباء غير المنقطع، من الرسل إلى يومنا هذا، ناقلة إلينا الإيمان الذي أورثه المسيح للرسل. أقول حسناً حتى يومنا هذا، لأنه، على عكس المفهوم الكلاسيكي للكاثوليك، الذي يعتبر الفترة الآبائية أُغلِقت في الشرق مع القديس يوحنا الدمشقي (القرن الثامن) وفي الغرب مع إيزيدور الإشبيلي (القرن السابع)، ترى الكنيسة الأرثوذكسية أن القرون اللاحقة استمرت في إنتاج الآباء وأن العصر الآبائي ليس له حد زمني.

٤. أهمية معرفة الآباء في معرفة اللاهوت

أحد أسباب ضرورة معرفة أعمال الآباء جيداً هو أهميتها التاريخية في تكوين اللاهوت الأرثوذكسي وتطويره. فمن خلال النضال الذي خاضه القديس أثناسيوس الإسكندري والآباء الكبادوكيون ضد الأريوسيين ومحاربي الروح القدس، تمّ تحديد مفهوم الثالوث بأكمله بدقة؛ كما بفضل نضال القديس كيرلس الإسكندري ضد النساطرة، وآباء خلقيدونية ضد أصحاب الطبيعة الواحدة، والقديس مكسيموس المعترف ضد أصحاب القوة الواحدة والمشيئة الواحدة، تم تعريف الخريستولوجيا الأرثوذكسية. فمن دون دراسة متأنية لهؤلاء الآباء، يكاد يكون من المستحيل أن نفهم بعمق اللاهوت الأرثوذكسي حول الثالوث المقدس والروح القدس والمسيح.

٥. ضرورة الرجوع إلى الآباء في ممارسة اللاهوت

من الضروري الرجوع إلى الآباء ليس فقط لمعرفة اللاهوت، بل أيضاً لممارسة اللاهوت.

من المعتاد في ممارسة اللاهوت الأرثوذكسي الرجوع إلى الكتاب المقدس والنصوص الليتورجية والمجامع والآباء، لأنَّ اللاهوت الأرثوذكسي، كما قلنا، مندمج دائماً في التقليد، والتقليد يدمج كل هذا. من خلال اقتباس الآباء، يبين اللاهوتي أنه لا يعبّر عن نفسه كفرد منعزل، متخذاً من نفسه وضميره وفكره نقطة انطلاق ومركزاً ومرجعاً، وأنه لا يعتبر نفسه سلطة، بل أن تفكيره مندمج في كلٍ يتجاوزه، ومنه يستمد إلهامه ويجد مبرر وقيمة وسلطة ما يؤكده. إن الفكر اللاهوتي الأرثوذكسي ليس فكراً فردياً، بل فكراً جماعياً، حيث يكون كل عضو، ليس الآن فقط بل عبر التاريخ، في جسد المسيح الذي يؤلف الكنيسة، متكافلاً مع الأعضاء الآخرين ويستمدّ منهم نشاطه ووظيفته. الآباء هم بالنسبة إلى اللاهوتي في آنٍ واحد: المعايير والمرشدون والمنارات ونقاط الارتكاز. إن اللاهوتي، باقتباسه للآباء، وبطمسه نفسه أمامهم، يشهد لتواضعه وخضوعه لتعليم الكنيسة.

في هذا النهج بالذات، الآباء هم نماذج، إذْ أنَّ جميعهم يشيرون إلى سابقيهم، ويستشهدون بهم، حتى لو لم يستخدموا دائماً إشارات صريحة مزودة بعلامات الاقتباس. إن أعظم الآباء يمحون أنفسهم أمام الآباء الآخرين، مؤكدين أنهم مدينون لهم بكل شيء، ولم يفكروا في أي شيء من أنفسهم. هكذا يكثِر القديس مكسيموس المعترف من عبارات الأمانة لتعليم الآباء. وهو يدعي أنه "يتبع الآباء القديسين في كل شيء"[١٨]. ويشهد لحرصه على "التقوى الكاملة وعدم الانحراف عن تعليم الآباء"[١٩]. ويؤكد: "أنا أفكر وأؤمن وأقول تعليم الآباء كما تلقيته منهم"[٢٠]، ويقول في مكان آخر: "هذا هو الإيمان الذي تعلمته والذي أتعلمه من آبائنا القديسين والمغبوطين". إن عبارات "حسب الآباء"[٢١]، "كما قال الآباء"[٢٢]، "كما حدد الآباء"[٢٣]، "حسب تعليم الآباء"[١٠]، "حسب تعليم الآباء الذين ثبتوا"[٢٤]، "مع الآباء"[١٢]، "كما نقل إلينا تعليم الآباء"[٢٥]، تتكرر بانتظام تحت قلمه. فهو يؤكد في بداية الرسالة ١٥: "لن أقول شيئاً يصدر مني؛ سأقول فقط ما يقوله الآباء، دون تغيير أي شيء"[١٤].

وبنفس الطريقة يكتب القديس يوحنا الدمشقي في بداية عرضه للإيمان الأرثوذكسي: "كل ما نقله إلينا الشرع والأنبياء كما الرسل والإنجيليون، نقبله ونعرفه ونقدره أكثر من أي شيء آخر ولا نرغب في أي شيء آخر. سنكتفي به تماماً ونتمسك به "لا ننقل التخم الذي وضعه الآباء" (أنظر أمثال ٢٢:٢٨) ولا نغيّر التقليد الإلهي"[٢٦].

٦. حول حسن استخدام الآباء في ممارسة اللاهوت

ولكن لا يكفي الرجوع إلى الآباء والاستشهاد بهم – كما لا يتعلق الأمر بالرجوع إلى الكتاب المقدس والاقتباس منه – لإنتاج لاهوت جيد. يمكن أن يكون هناك استخدام جيد واستخدام سيء للآباء.

أ. يكمن الاستخدام السيئ للآباء في أن يضعهم اللاهوتي في خدمة فكره. من الممكن بالفعل تطوير مفهوم خاطئ وإيجاد اقتباسات من الآباء مأخوذة إلى خارج سياقها لتبرير فكر اللاهوتي. وهذا ما يمكن أن نراه عند كل الهراطقة.

18 *Dispute avec Pyrrhus*, PG 91, 297AB.
19 *Opuscules théologiques et polémiques*, 19, PG 91, 225A.
20 *Lettres*, 15, PG 91, 576A. [6] *Lettres*, 13, PG 91, 532C.
21 *Lettres*, 13, PG 91, 513C, 525C ; 15, 545A ; *Th. Pol.*, 7, PG 91, 73C ; 26, PG 91, 276AB.
22 *Ambigua à Jean*, 42, PG 91, 1324D ; *Th. Pol.*, 20, PG 91, 252C.
23 *Opuscules théologiques et polémiques*, 24, PG 91, 269B ; 25, 272B. [10] *Lettres*, 112, PG 91, 472CD ; 15, PG 91, 565D ; *Th. Pol.*, 20, PG 91, 249D.
24 *Opuscules théologiques et polémiques*, 16, PG 91, 185D. [12] *Lettres*, 112, PG 91, 484B.
25 *Opuscules théologiques et polémiques*, 20, PG 91, 245A. [14] *Lettres*, 15, PG 91, 544D.
26 *Exposé précis de la foi orthodoxe*, I, 1.

ب. يفترض الاستخدام الجيد للآباء في اللاهوت أن نقوم أولاً بتجريد أفكارنا الخاصة، وعندما نواجه مشكلة أو سؤالاً معيناً، نسأل أنفسنا أولاً: "ما هو فكر الآباء؟" في أي موضوع يدرسه، ينبغي على اللاهوتي أولاً أن يجمع كل نصوص الآباء التي تتناوله، مع الحرص الشديد على الحفاظ على سياقها. عليه بعد ذلك أن يرى ما الذي يحدد ما هو مشترك بينها، من خلال الاختلاف المشروع في المقاربات الآبائية، ويستلهم منه مباشرة لمعالجة موضوعه. على اللاهوتي أن يسعى دائماً إلى التفكير بحسب الآباء، مع الآباء، ومثل الآباء. ولهذا يجب عليه أن يتواضع ويضع رأيه الشخصي جانباً ويمتص، مثل الإسفنجة، ما قاله الآباء.
من ثمّ تصبح مساهمته الشخصية ممكنة ومشروعة لإنتاج محصّلة. ومن الممكن أيضاً أن يقدم إجابات على الأسئلة التي لم يجِب عليها الآباء لأنها لم تُطرح في عصرهم (على سبيل المثال بعض الأسئلة الحالية في أخلاقيات علم الأحياء المرتبطة بتطور التقنيات الحديثة)، أو لأن أخطاء جديدة في تفسير العقيدة قد ظهرت (بالفعل سيكون هناك بدع جديدة حتى نهاية العالم). لكن في هذه الحالة، يجب على اللاهوتي أن يعتمد دائماً على المبادئ التي وضعها الآباء (كما هو الحال، على سبيل المثال، في أخلاقيات علم الأحياء حيث يرتكز على الأنثروبولوجيا التي طورها الآباء، أو في مواجهة البدع الجديدة حيث يرتكز على الأسس العقائدية التي شبق أن طرحها الآباء).

٧. التفكير بروح الآباء

في الحالات التي يجب أن يعبر فيها عن نفسه في مواضيع لم تتح للآباء الفرصة لمعالجتها، يجب على اللاهوتي أن يفكّر "مثل الآباء"، أي بروح الآباء.
إن التفكير بروح الآباء يفترض قبل كل شيء أن اللاهوتي قد تشبّع بهذا الروح من خلال الارتباط الطويل بالآباء والقراءة الغزيرة لأعمالهم. ولكن هناك عدة طرق لقراءة الآباء. هناك طريقة خارجية، شكلية وفكرية بحتة للتقرب من الآباء، كما لو كانوا فلاسفة أو كتاباً قدماء. يجب على اللاهوتي الأرثوذكسي أن يستبعد هذه الطريقة. بالمقابل يجب مقاربة الآباء باحترام، كآباء بالمعنى الأول ومعلمين (القديس مكسيموس المعترف، في أعماله، يدعو باستمرار القديس غريغوريوس اللاهوتي، الذي يستلهم منه كثيراً، " *o didascalos* " أي المعلم). ولكن قبل كل شيء، يجب أن نقترب منهم روحياً، بالمحبة والتبجيل. أبي الروحي، الستاريتز سيرج (شافيتش)، نصحني عندما بدأت بدراسة الآباء بأن أقرأهم بنفس طريقة قراءة الكتاب المقدس، لا بالعقل بل بالروح متحدة بالقلب في الصلاة. ولهذا أسستُ شركة حقيقية بالروح مع الآباء.
ب. إن اكتساب نمط التفكير الآبائي يتم جزئياً من خلال محاكاة فكرية معينة تُمارَس في جو روحي داخلي معين، ولكن جزئياً وقبل كل شيء من خلال التفكير انطلاقاً من نفس الحالات الروحية مثل الآباء، من خلال اكتساب نفس الخبرة الداخلية مثلهم، وبالتالي أيضاً نفس أسلوب حياتهم الكنسي والنسكي. لا يستطيع اللاهوتي أن يقتني التمييز والإلهام الذي يحتاج إليه، وهما نعمة الروح القدس، إلا إذا مارس الوصايا الإلهية، وتطهّر من الأهواء، واجتهد في العيش بحسب الفضائل، واشترك في الحياة الليتورجية، وتغذّى بالروح القدس. إن الأسرار المقدسة في الحياة الكنسية، تظهر التواضع تجاه الحقيقة وتقليد الكنيسة الذي تنقله، وتنجز مهمتها من منطلق محبة الله والقريب[٢٧].

٨. حاليّة الآباء

في الختام، أود أن أجيب على سؤال كثيراً ما يطرحه أشخاص من خارج الكنيسة الأرثوذكسية: أليس الآباء مؤلفين قدامى، وقد عفا عليهم الزمن الآن؟

27 Pour un développement plus détaillé sur les conditions spirituelles de la pratique de la théologie, voir ma conférence « Что такое богословие? », *Вестник Православного Свято-Тихоновского гуманитарного университета*, I : 3 (41), май- июнь 2012, p. 117-131.

منذ أن بدأت دراسة الآباء، منذ أكثر من أربعين عاماً، وجدت دائماً أن فكرهم والطريقة التي يعبّرون بها عنه لا تزال حيّة بشكل مدهش، بل وأود أن أقول إنها راهنة؛ وهذا ما جذبني في البداية لقراءتهم، ولهذا السبب لا أزال أجد اهتماماً بأعمالهم حتى اليوم. ليس انطباعنا عند قراءتهم أننا في حضرة رجال بعيدين عنا كثيراً مكاناً وزماناً، حتى لو عاش بعضهم في أزمنة بعيدة وفي سياقات جغرافية واجتماعية وثقافية مختلفة تماماً عن سياقنا. . ما يقولونه يتحدث إلينا في حينه ويؤثر علينا بشكل مباشر.

هناك عدة أسباب لذلك: أولاً، حقيقة أنهم اختبروا ما يقولونه بعمق، وأن ما يقولون ليس بناءاً مصطنعاً مجرداً لعقلهم، ولكنه تعبير عن تجربتهم الشخصية الداخلية، حيث يرتبط العقل ارتباطاً وثيقاً بالقلب؛ ثانياً، حقيقة أن تعاليمهم تتغذى باستمرار من الكتاب المقدس، وهو أيضاً أحد المصادر الرئيسية لحياتنا المسيحية؛ ثالثاً، حقيقة أنهم يعيشون المسيحية بشكل أساسي، في جوانبها الأساسية، مما سمح لكلماتهم وكتاباتهم أن تعبر القرون وأن تكون قادرة على تغذيتنا حتى اليوم؛ رابعاً، أن فكر الآباء (إلا في حالات قليلة يأخذ فيها اللاهوت، بسبب طبيعة الخلاف، جانباً تقنياً للغاية) هو فكر وجودي ملموس؛ خامساً وأخيراً، حقيقة أن خبرتهم عالمية في الزمان والمكان، لأن هذه الخبرة هي تجربة الحياة في المسيح، الذي هو، كما يقول القديس بولس "هو هو أمساً واليوم وإلى الأبد" (عبرانيين ١٣:٨).

Source : Jean-Claude Larchet, ***L'importance des études patristiques pour les études théologiques,*** Elpis, 16 2014: 7-10.
محاضرة ألقيت في وارسو في ٢٧ تشرين الثاني ٢٠١٣.

البابا الرمادي والمثلية

الأب انطوان ملكي

بعد أربعة أشهر من جلوسه على كرسي الرسول بطرس وخلافته للمسيح على الأرض، وفي طريق عودته من البرازيل في ٢٠١٣، سأل الصحافيون بابا الفاتيكان فرنسيس عن المثلية والمثليين فكان جوابه "مَن أنا لأدين؟" الرجل الذي، بحسب تقليد جماعته، يحمل نسخة من مفاتيح أبواب الملكوت، والذي يتطلع العالم إليه كأعلى سلطة أخلاقية على الأرض، قد سبق لأسلافه أن استعملوا هذه السلطة وحوّلوها إلى سياسية حيناً ومالية حيناً آخر، حتى أن بعضهم أشعل الحروب مستنداً إليها، هذا الرجل عينه أعلن أنه لا يستطيع الحكم في أمرٍ حُكمُ الكنيسة والإنجيل فيه واضح جداً. لقد فضّل البابا الانتقال إلى المساحة الرمادية التي تتيح لمحبذي الأبيض أن يجدوا مطلبهم كما لمحبذي الأسود أيضاً.

إلى أي حد يستطيع إنسان في موقعٍ متقدمٍ في المسيحية أن يفصل نفسه عن موقعه؟ وإلى أي حد يستطيع أي موقع أن يقدِّم إجابات غير تلك التي تتبناها الكنيسة؟ فجواب البابا "مَن أنا لأدين؟" ليس في محله. هو لم يُسأل لأنه جورج ماريو باربوغوليو بل لأنه البابا فرنسيس، "أسقف روما، نائب يسوع المسيح، خليفة أمير الرسل، الحبر الأعظم للكنيسة الجامعة، بطريرك الغرب، رئيس إيطاليا، رئيس أساقفة مقاطعة روما، حاكم دولة الفاتيكان، وخادم خدّام الله"[٢٨]. الجواب المنتظَر منه هو ما تقوله الكنيسة. البابا إنسانٌ يَطلبُ منه موقعه الكثير أكثر مما هو مطلوبٌ من أي مسيحي آخر من ناحية إعلان وتظهير تعليم الإنجيل والكنيسة.

في ٢٠٢١، صدر ردٌّ عن دائرة عقيدة الإيمان جواباً على سؤالٍ موجَّه من بعض الأساقفة حول إمكانية مباركة الأزواج المثليين. يرِد في الرد حرفياً أن لا شيء "يمنع البركات الممنوحة للأفراد ذوي الميول الجنسية المثلية، الذين يظهرون إرادة للعيش بأمانة بحسب مخططات الله المعلنة كما هي في تعليم الكنيسة. لكن المحرَّم هو كل أشكال البركة التي تميل إلى الاعتراف بزواجهم على هذا النحو.... [الله] لا يبارك الخطيئة، ولا يستطيع أن يباركها: إنه يبارك الإنسان الخاطئ، حتى يدرك أنه جزء من مخطط محبته ويسمح له أن يتغير.. للأسباب المذكورة أعلاه، لا تملك الكنيسة، ولا يمكنها أن تملك، القدرة على مباركة اتّحادات الأشخاص من نفس الجنس"[٢٩].

في ١٨ كانون الأول ٢٠٢٣، صدرت وثيقة أخرى عن دائرة عقيدة الإيمان عنوانها ""Fiducia Suplicans (المعنى الرعوي للبركات)، والتي بحسبها سيكون من الممكن منح البركة للأزواج المثليين ولكنْ خارج أي طقوسٍ أو تقليدٍ لحفل الزفاف، إذْ إنَّ عقيدة الزواج لن تتغير، دون أن تعني البركة أبدًا الموافقة على الزواج[٣٠].

ما الذي تغيّر في سنتين حتى صار للكنيسة القدرة على عمل ما لم تكن قادرة عليه؟

مقدمة الوثيقة: تطوُّر العقيدة

تطوُّر العقيدة هو مصطلح استخدمه جون هنري نيومان وغيره من اللاهوتيين المتأثرين به لوصف الطريقة التي أصبحت بها التعاليم الكاثوليكية أكثر تفصيلاً ووضوحاً على مر القرون، فيما تبقى التعاليم اللاحقة للعقيدة متسقة مع التعاليم السابقة. قدَّم نيومان هذا المصطلح عام ١٨٤٥ في كتاب بعنوان "مقالٌ عن تطور العقيدة المسيحية". من الواضح أنَّ من أهدافه كان تقريب وجهات النظر بين الكاثوليك والبروتستانت، وهو

٢٨ هذه الألقاب التي تُطلَق على البابا وقد كانت في وقت ما مجتمعة تشكّل توقيعه.

29 Congregation for the Doctrine of the Faith. Responsum to a dubium regarding the blessing of the unions of persons of the same sex, 15.03.2021. https://press.vatican.va/content/salastampa/en/bollettino/pubblico/2021/03/15/210315b.html

٣٠ وثيقة جديدة تفتح إمكانيّة منح بركات بسيطة للأشخاص الذين يعيشون أوضاعًا غير منتظمة. أخبار الفاتيكان.
https://www.vaticannews.va/ar/vatican-city/news/2023-12/dottrina-fede-dichiarazione-benedizioni-coppie-irregolari.html

الكاردينال الكاثوليكي الـذي كان قبلاً كاهناً أنكليكانياً. كان لفكـر نيومـان تـأثير كبير على المجمـع الفاتيكاني الثاني الذي ورد في بيانه أن "فهم الأشياء والكلمات المنقولة ينمو من خلال التأمل ودراسة المؤمنين"[٣١].
في مقدمة الإعلان عن الوثيقة المذكورة، يوضح عميد دائرة عقيدة الإيمان، الكاردينال فيكتور مانويل فرنانـديز أن الإعلان يتعمـق في "المعنى الرعـوي للبركات"، مما يسـمح "بتوسيع وإغناء الفهم الكلاسيكي لهـا" من خلال تأمُّلٍ لاهـوتي "يقـوم على الرؤيـة الرعويـة للبابا فرنسـيس". تأمـلٌ "يتضمَّن تطـوراً حقيقياً مقارنـةً بما قيل عن البركات" حـتى الآن، للوصـول إلى فهم إمكانية "منح البركـة للأزواج الـذين يعيشـون في أوضـاع غـير نظامية وللأزواج المثليين، دون الموافقة على وضعهم بشكل رسمي أو تغيير تعليم الكنيسـة الـدائم حـول الـزواج بأي شكل من الأشكال"[٣٢].
في البحث اللاهوتي، لا يحتاج كلام الكاردينال فرنانديز أعلاه الكثير لبرهان استناده إلى مبدأ تطور العقيدة الذي أتاح الكثير من التغيرات في الغـرب، ويبدو أن تقبُّل المثلية هـو أحـدها. لكن تقبُّل هـذا التغيُّر لا يمكن أن يكـون فجائياً بل تنبغي التهيئة له، ومن هنا أتى تغيير مفهوم البَرَكة وجعلُه مطاطاً، طالما أن مفهـوم الـزواج هـو عقيدة يتطلب تغييرها إطاراً ومحتوىً غير متوفرين إلى اليوم.

محتوى الوثيقة

تتناول الوثيقة البركة في سر الزواج وترفض الاعتراف بأي شكل من الأشكال "باعتبار زواجاً ما هـو ليس كذلك". وتعيد الوثيقـة التأكيد على أنَّه وفقاً "للعقيدة الكاثوليكية الدائمـة"، تُعتبر العلاقات الجنسـية شرعية فقـط في سياق الزواج بين رجل وامرأة.
وبعـد تحليل معـنى البركات المختلفـة، تُـذكِّر الوثيقـة أن البركـة "من وجهـة نظـر ليتورجية بحتة"، تتطلب أن يكون ما تتمُّ مباركته "متوافقًا مع إرادة الله التي يتمُّ التعبير عنها في تعاليم الكنيسـة"، لذلك لا سلطة للكنيسة أن تمنح البركة الليتورجية للأزواج غير النظاميين أو المثليين. وهنا ينبغي ملاحظة عبارة البركة الليتورجية، أي أن هناك بركة من نوع غير ليتورجي. ثم تنتقل الوثيقة إلى "الفهم اللاهوتي الرعوي: الذي مفاده أن الذي يطلب البركـة يُظهـر أنـه في حاجـة إلى حضـور الله الخلاصي في تاريخـه"، لأنه يعـبر عن "طلب المسـاعدة من الله، والتماسـها لكي يتمكن من أن يعيش بشـكل أفضـل" وبالتالي يجب قبـول هـذا الطلب وتقـديره "خـارج الإطار الليتورجي" عندما يأتي "بطريقة عفوية وحرة". وبالنظر إليها من منظور التقوى الشعبية، "يجب تقييم البركات على أنها أفعال عبادة". وبالتالي فإنَّ مَنحها لا يشترط "الكمال الأخلاقي المسبق"[٣٣] لطالبها بالضرورة.
ثم تستنتج الوثيقـة أن هـذا النـوع من البركات "يُمنح للجميـع، بدون تطلُّبِ أي شيء، لكي نجعـل الأشخاص يشعرون أنهم يبقون مبارَكين رغم أخطائهم وأنَّ الآب السماوي لا يزال يريد خيرهم ويرجو أن ينفتحوا في نهاية الأمر على الخـير"... لـذلك، في حين أن الحظـر على تفعيل "الإجراءات أو الطقـوس" لا يـزال قائمـاً في هـذه الحـالات، إلا أنّـه يمكن للكاهن أن يتَّحد مـع صلاة هـؤلاء الأشخاص الـذين "على الـرغم من أنَّ الاتحاد الـذي يعيشـونه لا يمكن مقارنته بأي حال من الأحوال بالزواج، لكنّهم يرغبون في أن يسلِّموا ذواتهم للربِّ ولرحمته، وأن يطلبوا معونته، وأن يتمَّ إرشادهم إلى فهم أكبر لمخطّطه، مخطّط المحبة والحقيقة"[٣٤].
وتستنتج الوثيقـة في الفصـل الثالث إمكانية منح هـذه البركات الـتي تمثل لفتةً تجـاه الـذين "إذْ يعـترفون بأنهم مُعـوزون وبحاجـةٍ إلى مسـاعدة الله، هم لا يطـالبون بتشريـع حـالتهم بل يلتمسـون بأن يكـون كلَّ مـا هـو حقٌّ وصالحٌ وإنسانيٌّ حاضرًا في حياتهم وعلاقاتهم، وأن يُشفى ويُصحَّح ويُرفع بحضور الروح القدس" لتنتهي بأنه عندما يطلب البركةَ أزواجٌ غير نظاميين أو مثليين، فإنَّ "هذه البركة لن تتمَّ أبدًا في الوقت عينه لطقوس الزواج المدني، ولا في إطار أي شيء يتعلق بها؛ ولا حتى بالملابس أو التصرفات أو الكلمات الخاصة بالزواج".

31 Dave Armstrong. Development of Catholic Doctrine: A Primer. National Catholoc Register. January 5, 2018. https://www.ncregister.com/blog/development-of-catholic-doctrine-a-primer
٣٢ المرجع نفسه
٣٣ المرجع نفسه
٣٤ المرجع نفسه

تعليق

قد تكون مقارنةُ هذه الوثيقة بعددٍ من الرسائل البابوية السابقة أبسطَ عمليات النَّقد العلمي التي تُظهِر أن المطروح اليومَ فيه ابتعادٌ كبير عن السابق من ناحية مفهومِ البَرَكة وإعطائها وما تستوجبه من ممارسةٍ للإيمان وما تطلبه من المؤمنين، وأيضاً من ناحية مفهوم العلاقة بين الله والبشر بشكل عام، وأخيراً تشريع التفلُّت من الالتزام بالنُّصوص في الصلوات وهو ما كان موضوعَ أكثر من وثيقةٍ ورسالة بابوية.

والواقع هو أن هذه الوثيقة تفتقد فعلياً للمحتوى اللاهوتي الجدّي، وكأنها تجميع استشهادات إنجيلية من هنا وهناك، أو مقاطع من التعليم الكاثوليكي أو رسائل الباباوات، وهذا ما لا يجعل هذه الوثيقة مادةً للدرس، ولا يؤهلها للدراسة كَنَصٍ مسيحي. إن فيها، على المستوى الفكري والروحي، من الهزالة والضحالة في منهجية الفكرِ الذي تعكسه في معالجة الأمور ما يُسقِط عنها صفة الجدِّية التي يُفتَرَض بالنَّص الديني أن يكون عليها كي لا تكون مناقشته مماحكاتٍ حذَّر منها الرسول بولس.

في السكولاستيكية الكاثوليكية، يرِد أن البرَكَة في إطار الطقوس الليتورجية شيء، ومباركة الذين يصرِّحون أنهم "بحاجة إلى حضور الله الخلاصي" شيء آخر كتعبيرٍ عن "طلب مساعدة الله، ودعوة للعيش بشكل أفضل". ومن هنا أنَّ الوثيقة تعلن دون أي تردُّدٍ أن البركة المقصودة هي "خارج الحدود الليتورجية"، أي أنها "في عالم أكثر عفوية وحرية". ويمكن اعتبار هذه العملية البسيطة عملاً من أعمال الأخلاق الدينية ومثالاً على "التقوى الشعبية... ولا يمكن استبعاد أحد عنها".

لهذا، فمن الطبيعي أن يبارك الكاهن بعلامة الصليب أي إنسان على الطريقة الكاثوليكية ويصلّي صلاة قصيرة بغض النظر عن الحالة الأخلاقية أو شرط "الكمال الأخلاقي الأولي" للطالب. أي أن طلب البركة ونوالها لن يُعتبر بأي حال من الأحوال موافقةً من الكنيسة على خطايا الإنسان ورذائله المحتملة.

فيما يبدو الكلام معقولاً، لا يبدو واضحاً مسار هذا الانتقال من البركات الطقوسية إلى البركات الرعائية ولا ما يستتبعه. فالنقطة هنا هي أن التفحُّص الأخلاقي الذي يُعفى منه طالبو البركة ينتقل إلى الكاهن: هل يمكن للكاهن أن يرفض البركة الرعائية إذا كان الشَّخصان طالبا البركة يُشكلان زوجاً من المثليين دون أن يكون قد أخلَّ بواجباته الأخلاقية؟

فالوثيقة، استناداً إلى علم النفس الذي يبرع فيه بعض خبراء الفاتيكان، تضع هذه البركة في إطار صورة شاعريةٍ ذات تأثيرٍ عاطفي تتكثَّف حيث يرِد أن هذه البركات تقدِّمُ لهؤلاء الأزواج إمكانية الرَّحمةِ والبركات السماوية، لتنتهي الوثيقة بأنَّ مباركة الأزواج المثليين مسموحٌ بها، ويمكن الصلاة من أجلهم، طالما لا يتم تفسير هذا الأمر على أنه نعمة طقوسية. ويمعن النص في الضحالة إلى أن ينتهي بأنه لا ينبغي إعطاء البركة باستخدام أي ملابس أو إيماءات أو كلمات مناسبة لحفل الزفاف، أي إذا جاء زوجان مثليان بملابس عادية يحصلان على البركة، ولكن إذا جاءا بملابس الزفاف فإنَّهما يُحرَمان منها.

إن المنهجية المُتَّبعة مخادِعة، حيث هناك استبدالٌ دقيق للمفاهيم. لا يمكن مباركة الاتِّحاد المثليّ لأنَّه يتعارض مع عقيدة الزواج الكاثوليكية، لكنْ يمكن مباركةُ المثليين لأن المباركة هي تعبيرٌ عن الرحمة تجاه المذنب والإنسانية بشكل عام. فيما لا يرفض أحدٌ أنَّه لو تقدَّم كلُّ واحدٍ من الزَّوجين المثليين على حدة طالباً البركة لشخصه لحصل عليها، فإنَّ تكرار الكلام عن زوجين يأتي كتأمينٍ لفُرصة مباركة الأزواج المثليين، وليس مجرد الأفراد ذوي التوجهات غير التقليدية. إنه موقف يتبنّى العلاقات المثلية وقد تمَّت صياغته بطريقة رمادية تملُّصية.

صراع التقليديين والليبراليين

واضحٌ أنَّ من بين أهداف الوثيقة تهدئة مشاعرِ الذين أصيبوا بالخيبة من رسالة ٢٠٢١، وطمأنة أنصار مجتمع المثليين أن الكثلكة لا ترفضهم، وأنها تتحرك في الاتجاه السياسي "الصحيح". فالصراع الحاد في الكثلكة بين الليبراليين والمحافظين يجد في الموقف من المثلية مكاناً للظهور، كما في كل الجماعات. فليبراليو الفاتيكان يجادلون بأن الوقت قد حان لتحريرٍ شاملٍ يتضمَّن الاعترافَ بمجتمع المثليين وكهنوتِ المرأة والسماحَ بالإجهاضِ والقتلِ الرحيم، وغيرها من "الإصلاحات"، وإلا فالكثلكة مُعرَّضة لخطر الاختفاء التام كونها لا تتماشى مع متطلبات المجتمع "الحديث". في المقابل، يُصرُّ التقليديون على أن "الكنيسة الكاثوليكية" يجب أن تظل وفية لتعاليمها الأخلاقية، ولن يساعد التحرير في منع عملية العلمنة المجتمعية بل سيحوِّل الكنيسة إلى أداةٍ خاضعة للمشاعر العامة[٣٥]. هذا الصراع المستمر سيضطر الفاتيكان إلى الاختيار بين الاعتراف بزواج المثليين أو رفضه. من هنا أن ظهور هذه الوثيقة هو محاولةٌ يائسة للبقاء في الرمادي وإرضاء كلٍّ من المحافظين والليبراليين.

لكنْ من حق المحافظين الآن أن يتساءلوا ويتَّهموا رئاستهم بالاعتراف بالأزواج من نفس الجنس. في المقابل لن يكتفي الليبراليون، بل سيعتبرون القرارات فاترةً وسيطالبون الفاتيكان بالاعتراف الكامل بحقوق المثليين، بما في ذلك الحق في الزواج من دون تمييز كأن يُعطى للزواج التقليدي بركات ليتورجية فيما للمثليين بركات لاهوتية رعوية وحسب.

مواقف من الوثيقة

الميتروبوليت هيلاريون مطران بودابست، الرئيس السابق لمكتب العلاقات الخارجية في الكنيسة الروسية، وهو الخبير بشؤون الكثلكة، رأى أن الوحدة مع الأرثوذكسية صارت مستحيلة لأن "خطواتٍ من هذا النوع، بالطبع، لا تقرِّبنا من بعضٍ بل تخلق خطوط فصلٍ بيننا"[٣٦]

كما ينبغي التوقف عند البيان الذي أصدره المفتي الجعفري الشيخ أحمد قبلان، وفيه ينقد الوثيقة بفكر إنساني شامل يستند إلى بديهيات مشتركة -ولو بالشكل- بين الأديان، ما يؤكّد ركاكة الفكر الذي تعكسه الوثيقة. في ما يلي بعض مما ورد في البيان، لا من باب الاستشهاد بل من باب التوثيق، حيث لفت البيان إلى أنَّه "لا يمكن لأي عقل طبيعي أو ديني أو فطري قبول أي ساتر من سواتر مباركة الشذوذ الجنسي من لواط وسحاق وأمثاله مما يعد من أسوأ أنواع الجرائم الأخلاقية وأطغاها، والشذوذ بما هو شذوذ لا يمكن أن يكون زواجاً أو رابطاً أبدياً ولا إمكانية لمباركة مرتكبيه ولا مكان له في عالم الإنسان وأخلاقياته الوجودية... خلط البَرَكة بالشذوذ ينسف البركة ويطعن صميم حقوق أسباب وجود الإنسان، ورحمة الرب بصريح المنقول عن الربِّ لا تنال أصحاب هذا النوع الذي يرتكب أسوأ شذوذ أخلاقي وأخطر كارثة مدوية في عالم الأخلاق وضرورات النوع الإنساني، لذلك فإن مباركة هذا النوع الشاذ تحت أي شكل من الأشكال كارثة مدوية ونكبة طبيعية وأخلاقية لا يمكن لأي دين أو ضمير أن يقبل بها على الإطلاق"[٣٧].

خاتمة

في تاريخه الذي نعرفه، تنقّل البابا فرنسيس بين الأبيض والأسود وتوقف في الرمادي كثيراً. فقد رأيناه يقبّل أرجل الحاخامات ويصلّي مع عبدة الشجر وغيره العديد من الأحداث التي أبعدت كثيرين من الكاثوليكيين عن روما وباباها، ومنها تحديداً الموقف من المثلية والمثليين.

35 Kirill Aleksandrov. Will Catholicism be split in 2023? UOJ. 04 June 2021. https://spzh.news/en/zashhita-very/80288-raskol-katolichestva-proizojdet-uzhe-v-2023-godu

36 Yaroslav Nivkin. ROC rep: After RCC blesses gays, reunification with Orthodoxy is impossible. Union of Orthodox Journalists. 22 December 2023. https://spzh.news/en/news/77558-roc-rep-after-rcc-blesses-gays-reunification-with-orthodoxy-is-impossible

٣٧ المفتي قبلان : مباركة الشذوذ الجنسي كارثة مدوية ونكبة طبيعية وأخلاقية لا يمكن لأي دين أو ضمير أن يقبل بها. الخميس ٢١ كانون الأول ٢٠٢٣. https://www.nna-leb.gov.lb/ar/ سياسة/٦٦٤٢٩٢/

في الأمور ذات الطابع السياسي، كالمثلية والحروب، من الصعب التميز بين موقف دولة الفاتيكان وموقف الكثلكة. إن محاولة إضفاء الطابع الإيماني على المواقف السياسية لم ينتج عنه إلا الفضائح والانشقاقات والخفة بالتعاطي والانتقائية في التطبيق. إن العودة إلى دراسة الأدوار التي ثبت أن دبلوماسية الفاتيكان أو بنك الفاتيكان لعباها في مختلف الحروب الكبيرة والصغيرة من الحرب العالمية الثانية إلى فييتنام إلى لبنان وصولاً إلى حرب أوكرانيا مع كل محطات ما جرى في فلسطين المحتلة منذ بداية القرن الماضي، تُظهِر أن تراجع الفكر الإيماني لصالح الارتهان لفكر سياسي بلغ فجورُه درجةً لم يعد يجد نفسه مضطراً لتغليف أي موقف. هذا ما يجعل رمادية مواقف الفاتيكان مجرد غطاء لموقف سوف يظهر سواده عاجلاً أم آجلاً. هذا يعني أن ما يُشرِّعه اليوم كبَرَكة سوف يصير زواجاً والكهنة الذين يرفضونه سوف يضطهَدون، تماماً كما يجري في الدول الغربية الأخرى.

حول إنجيل الوليمة الكبرى (أحد الأجداد)

الخورية سميرة عوض ملكي

رتّب آباء الكنيسة القديسون قراءة مَثَل الوليمة الكبرى في زمن التجسد قبل أحدين من عيد ميلاد ربنا ومخلصنا يسوع المسيح، بوحي إلهي.

في المثل، السيد هو الله، والضيوف المدعوون أصلاً هم اليهود الذين كانوا طوال تاريخهم ينتظرون اليوم الذي سيستدعيهم فيه الله. ولكن عندما أرسل الله في طلبهم، رفضوا دعوته لأسباب سطحية. في ذلك الزمان، كانت العادة عندما ينوي أحدهم إقامة وليمة في فلسطين، أن يُعلن عن الحدث قبل ذلك بوقت طويل. فيرسل الدعوات واستلامها كان يعني قبولها. وعندما يصبح كل شيء جاهزاً، كان يرسل الخَدَم لاستدعاء الضيوف. لهذا، قبول الدعوة بدايةً ثم رفضها في الوقت المحدد كان يعتبر إهانة.

في المنظور اليهودي، الفقراء الذين تم جمعهم من شوارع وأراضي المدينة والمقعدون والعميان والعرج هم الخطأة. ومع ذلك هم الذين خرجوا ورحبوا بربنا كما لم يفعل اليهود. أما الذين اجتمعوا من الطرق والسياجات فهم الأمم الذين قبلوا الدعوة في حين رفض اليهود دعوته وتركوا مائدته.

ينظر البعض إلى أمر السيد خدامه "ألزموهم على الدخول حتى يمتلئ بيتي"وكأنه إكراه، لكنه في الحقيقة لا يشير إلا إلى المحبة العظيمة التي يكنها الله لنا جميعاً، وأنه بذلك يظهر استعداده لفعل كل شيء لإنقاذ خليقته. يظهِر هذا المثل خسارة الذين يرفضون دعوة الله، كما يحكي عن الفرح الذي يتمتع به الذين ينالون هذه الهبة. ويكشف عن حقائق عظيمة كانت وما تزال ثابتة وجديدة وحيوية حتى في عصرنا هذا. في المثل، قدّم الضيوف المدعوون أعذارهم، وحتى اليوم لا تزال البشرية تُقدم الأعذار، مع اختلاف بسيط في الشكل وحسب.

نحن الآن في فترة استعداد للتجسد الإلهي. إنه وقت الترقب والتحضير الذي يقدم فيه الله لنا جميعاً الفرصة المبهجة لكي نتجدد. لكننا قد نميل جميعاً إلى تقديم الأعذار فنخسر الوليمة التي أسرع إليها الفقراء عند دعوتهم. سيولد ربنا من جديد فينا وسنُدعى لنتبع النجم مع المجوس، ولنؤوي مريم العذراء والطفل المسيح، ولنأخذ مكاننا مع الرعاة والحيوانات، فنشارك عشاءه السري. إنه يدعونا، لهذا علينا أن نقبل الدعوة ونلبّيها وألا تكون هناك أعذار.

* عن نشرة الكرمة - العدد ٥١ - الأحد ١٧ كانون الأوّل ٢٠٢٣